

الترجمة

سرايها.. يقينها

بقلم شريف الراس

ان فكرة المدنية حافر من اعظم الحوافز التي يتخذها الانسان سببا لسلوكه وتصرفاته . ولكن هذه الفكرة تضم في اغلب الاحيان مفهوما من اغلب المفاهيم غموضا واشدها استغلافا على الذهن . فبينما تصبح هذه الفكرة صماء لاشعورية ، ان صح القول ، لانسيابها العميق في باطن كياننا ابان فترات الهدوء الاجتماعي النسبي ، نجدتها تبرز على العكس في الاوقات العصيبة حتى تشغل المكان الاول ، وتحتل مركز الصدارة . ولا يخفى ان فترات الازمة تتميز في اكثر الاحيان باضطراب الاهواء ، فيلجأ الناس الى ذكر المدنية وتلهج السنتهم بدعائها والابتهاال اليها ، على الرغم من ان هذه الفترات المضطربة هي التي يبلغ فيها اهمال المدنية اوجه . . . فان كان اعتداء المتمدنين الغربيين على مصر اكبر تازم في مدنيتهم الجائرة ، وان كان رسل الاخلاق يقولون « ان (العمل) في البدء لا (الكلمة) » فقد حق للدكتور عادل العوا ان يستهل النسخة العربية من هذا الكتاب الذي تلخصه لقراء الاداب ، بقوله : « الى الشهداء العرب في بور سعيد . . . لبنة جديدة في صرحنا القومي وفي مدينة الانسان » . . . فهل صحيح ان تحرر العرب وسلوكهم الانساني في سلمهم وحرهم وتمسكهم بالعدالة ضمانا لمدينة الانسان ؟ ثم ما هي مدينة الانسان اصلا ؟ تلك اسئلة حاسمة في واقعنا القومي الراهن ، وربما كان الجواب عليها ، وتوضيح معانيها ، من اهم اسس الهندسة العقائدية التي نحتاج اليها لتفتح البنية الفكرية الانسانية المدفونة في نضالنا القومي النزاع الى الحرية والعدالة والمدنية النصح .

هذا الموضوع الخطير قبل كل شيء .

ما هي المدنية ؟ ان المدنية عالم يقاس كل شيء فيه بالمقياس الانساني . كل ما في المدنية يحمل طابع النية او القصدية الاساسية التي بها يتحرر الانسان من قسر الطبيعة فتزداد رغبته كما وكيفما وتزداد وسائل ارضائها سهولة ويسرا . انها مشهد الفاعلية الانسانية التي تروى السى المضي في انتاج ، وحماية ، وتنمية ، ونشر تلك الامور الكسبية .

هل هناك نوعان من البشر ، نوع يصنع المدنية ويحميها ونوع يتفرج على كل ذلك ويخضع له ؟؟ يقول باستيد : ان الانسان لا يمكن ان يحيا حياة العابر الناظر الى ما يمثل على مسرح المدنية بل ان كل انسان متمدن هو ممثل في هذا المسرح ولا بد له من ان يفعل شيئا ، وعليه ان يلتزم العمل ويتحمل مسؤوليته التامة بقدر جودة وعيه له ، ويكون التزامه حرا بكل ما تحمل حرية الاختيار من معنى . وما اخطر سلاح الحرية ، وما اخطر ان تفرغ الحرية من محتواها الانساني لتملأ بمحتوى نفعي فردي ؟ وظاهر « ان الفردية الحرة اساس المدنية التي عرفتها المجتمعات الاوروبية في القرن المنصرم ، عندما سادت النظرية النفعية ، وكان مثالها مثال التاجر الشريف . فالحياة تجارة مثل سائر انواع التجارة الاخرى . وعلى كل انسان ان يعمل عقله في سلوكه الخاص ، فيجد ان سعاداته لا تعرقل لسدة غيره ، وأن الانسانية المتمدنة سترتع في بحبوحة المدنية

*

اذكر انني كنت ذات مرة احمل كتاب برغسون « منبعا الاخلاق والدين » وكان الى جانبي على نفس المقعد ، فسي سيارة النقل الكبيرة ، شيخ عجوز من ذوي الثقافة العثمانية المعروفة بالاحية البيضاء واللغة « الاغباني » حول الطربوش ، واذكر ان الشيخ طلب مني بعد حرج ان اطلمه على الكتاب ففعلت . ثم سألني : من هو برغسون هذا؟ فقلت: فيلسوف فرنسي . وسرعان ما اعاد الي الكتاب قائلا : الفرنسيون ، اولئك قوم بلا اخلاق ولا دين . . . وشعرت بأن الشيخ المعجوز قد انتصر بهاتين الكلمتين فحسب ، اذ كل الوقائع العملية الى جانبه ، ولا يستطيع انسان ، يعرف عن وحشية الفرنسيين في الجزائر ما يعرف ، الا ان يشهد شهادة هذا الشيخ . ولكنني تابعت قراءة الكتاب . . قراته اكثر من مرتين .

ذكرت هذه الحادثة حين بدأت اقرا السطور الاولى من كتاب « المدنية : سرايها ويقينها » ، فالمؤلف جورج باستيد ليس فيلسوفا فرنسيا جاهزا ، بل هو - كما يتحدث عنه المترجم - « ليس عالما مؤرخا ، ولا عالما اجتماعيا ، وليس هو برجل قضاء او سياسة ، وانما هو امرؤ يجهد ليفدو ، بكل جلاء ، واحدا من هؤلاء الفلاسفة الذين تحدث عنهم ديكرت ، اي فيلسوفا يسعى لرؤية افكاره على نحو اوضح ، حتى يقود عمله على شكل افضل » . وربما كان من الانصاف ان نقول ان هذه الصفات الرائعة تنطبق على المترجم ايضا ، على ما بينهما من اختلاف في الوضع القومي . وان كان للجيل العربي الصاعد ان يشكر الدكتور عادل العوا على ترجمة هذا الكتاب ، فانما يشكره على انتقاء

وتنميتها وتوسيعها تدريجيا حتى تشمل الامم التي لم تسهم فيها بعد .

وترعرعت في انكلترا فلسفات النفعية ، التجريبية ، الدرانية ، الفردية ، وكان يكون من انكلترا ، وكذلك بنتام وجون ستيوارت ميل الذي دخل في خدمة شركة الهند الشرقية منذ السابعة عشرة ، وكتب مقالات طويلة يدافع بها عن « الحرية الشخصية » متابعا بذلك الميل البورجوازي العام ، واكمل دعائم الفلسفة النفعية فأضاف لذة الكيف الى لذة الحكم وقال : « ان الانسان البائس لخير من خنزير شبعان » . ولكنه لم يتساءل : لماذا لا يكون الانسان بائسا بل اكتفى بأن قال : « ان النفعية تقتضي الفاعل الحكيم ان يعمل للآخرين كما يجب ان يعملوا له ، وهذا الاثار شرط الحياة الاجتماعية التي هي بدورها شرط المنفعة الشخصية » .

ولكن الانسانية المتمدنية لم ترتع في بحبوحة من العيش وانما ظلت بريطانيا مسرحا للاضرابات العمالية المليئة بالأماسي والوحشية معا ، وظلت اوربا كلها ميدانا للثورات الشعبية والحروب المدمرة والازمات الاقتصادية المهلكة . وتبين ايضا ان الحرية الشخصية ، وفلسفة الدرانية والمنفعة تدعم الطبقات الناهية المستغلة المسيطرة ولكنها لا تجبرهم على الاثار . ان عاطفة الاثار لا تصدر عن وحوش .

ورغم ان يكون ، زعيم الفلسفة التجريبية البريطانية كان قد أوصى « بأن لا نلصق بالفكر اجنحة الخيال ، بل نعلا من رصاص حتى نظل في مستوى الارض » فان التناقضات الاجتماعية المذهلة ، وانقلاب القيم الموجبة في اوربا الى قيم سالبة في مستعمرات اوربا ، وخضوع تلاميذ يكون لوظيفتهم في تغطية هذه التناقضات اجبرهم على ان يركنوا الى « الافيون » . حتى ان باستيد ليتساءل : « عم يتكلم فلاسفة التجربة حين يبحثون في السعادة الانسانية ؟ ان رأيهم في السعادة ليس تصورا ذهنيا . فارغا ، بل ان فرط غناه يؤدي به الى التناقض . فاذا شئنا تسميته باسم قلنا انه خيال محال ، اي اسقاط خيالي في مستقبل آبق باستمرار ، لامنية التوفيق بين ما لا يقبل التوفيق . . . ومن الحق ان نملك جراءة القول : ان المنفعة والحرب لا يفترقان . . . والمدنية : اما الا تكون غير ما عناه الشاعر بقوله : تاريخ عابث لنوع بائس من الاحياء يقضون عمرهم وهم يحومون ، كما تحوم الحشرات البائسة ، حول قبس من لهب واحد سيحرقهم جميعا فيديهم طعم مسوت واحد ، واما ان توجد كفكرة ذات قيمة رائعة تحدد للجهد البشري معناه » .

٢

على ان البشر ابتلوا بنوع آخر من المهندسين العقائديين ، اشد خطرا وابعد تأثيرا من فلاسفة الجزيرة البريطانية ، اولئك هم مهندسو مذاهب النظام الرباني . ورغم اختلاف

افراد هذا الجيش الجرار في الشارات والشعارات واللباس الكهنوتي ومشاكل القنسوة فان منطقتهم واحد في كل زمان ومكان : « ان في الكون نظاما عاما اراده الله ذاته وخلقه فاخصص المجتمع الانساني بجملته ، كما اختص المجتمعات المتفاوتة بتفاصيلها ، كل بحسب طبيعته ، بمكان لائق ، وعمل ملائم . وهذه الطبيعة تتبع ، هي ذاتها ، رتبة الكائن في تسلسل القيم . وما المدنية سوى جملة نظام الاجتماع البشري في اطار النظام المطلق الرباني . وفي داخل هذا النظام الشامل تتسلسل المجتمعات وتتمايز ، فبعضها يكون اكثر مدنية اذا كان حظها من الوجود والقيمة اعظم واوفر من حظ المجتمعات الاخرى التي توسم عندئذ بأنها اكثر توحشا . . لا تتسرعوا ، ان اما احتلت اوطانها وابيدت اسرها ، ليبرهن انكسارها وامحاؤها على انها لا تستحق بعدئذ نعمة الوجود . فوجودها اذن معيار اخلاقي لا يتناول الحكم عليها حكما شخصيا مستقلا ، بل ان المعيار الاخلاقي للامتناع عن الحكم عليها ، بدعوى ان الله وحده صانع كل نظام ، وهو مكلف بأمر القيم والوجود ، شأن ذلك كشأن المبارزة القضائية . اذ الامر يومئذ لله ، والله يعرف دائما من ينصره . الم يكتب باسكال كلمته الرهيبة بسبب مذهب كهذا المذهب عندهما قال : « لما عجز الناس عن ان يكون العادل قويا قرروا ان يكون القوي عادلا » .

ويناقش جورج باستيد مقولات هذا المذهب جملسة وتفصيلا مناقشة تقدمية ثورية ، حتى يبين في النهاية ان « هذا النظام لا يضم سوى تصعيد نظام اقطاعي قائم على التملك العقاري ، ولا يخفي وراء قناعه الروحي امر آخر . الا مادية ارضية تريد ان لا يذكر اسمها » . ونضيف الى ذلك اعتقادنا بأن هذا النظام اللاهوتي للمدينة الخيالية كان اكبر خدعة استعان بها المستغلون لاستعمار الشعوب .

٣

ولكن ما بالنا نشغل انفسنا « بالنظام » ؟ ان هناك امورا ابعد من النظام تأثيرا في موضوعنا ، كالصيرورة والتطور والتقدم والتجاوز والدقة الحيوية والتطور المبدع الخلاق . ان الانسان لا يوجد بل يصير ، وكذلك المدنية فهي ليست مفهوما تجريديا جامدا كما يزعم المفرومون بالتشريح الكسول وانما المدنية شيء مشخص حي ينعشه كل ما يجعل حياة الفرد وحياة الجماعة حيوات حقيقية . على هذا المنوال « تفسر المدنيات التي تؤلف اشكال الخلق المتنوعة . فالتاريخ أشبه بغابة كبرى تضم ارضها السبخة بقايا الحضارات الغابرة كلها ، ويكفي الباحث ان يلم بحدس الحياة ليدرك طرافة الاشكال الجديدة التي تحملها الحركة الصاعدة ، والنبت الغزير ، والدفعة الجياشة ، في حين ان اشكالا اخرى عتيقة بالية تجاوزتها تلك الوثبة الحيوية المتطلعة الى السماء ، فباتت في طريق الانحلال ، يلفها ظل من الانحطاط ، ما يزال تتخلله الاف اجراس صغيرة تلمع

وتحاول ان تخدع ببريقها ولكنها لن توازي بلمعانها الضئيل
نور السماء الرحبة الساطع حيث لا تزدهر وتفتتح الأجرأ
الحركات وأقواها .

وبذلك ندخل ، مع باستيد الى حديقة فلاسفة الصيرورة
حيث تتعقد حلقات هيغل وفخته وشوبنهاور ونيتشه
وبرغسون وشبنجلر (١) . . . خليط عجيب من الفلاسفة
الجريئين ، نعمون في نشوة دمج القيم الاخلاقية بالمقولات
البيعية ويتفياون بظلال حاملة زرقاء لا تثبت امام التمحيص
الفكري . . . سمهم ما شئت : روه منطقيين ، فلاسفة الحياة
او التطور او الصيرورة او الخلق المبدع او ارادة الحياة
الخلاقة التي تحطم ذاتها ابان ازمة انجابها او فلاسفة
الجدل الصاعد او الخ ، ولكن مذهبهم جميعا تؤدي - فيما
يتعلق ببحث المدينة - الى مصب واحد . هذه المذاهب
جميعها تود ان تسوقنا الى صميم **ميثافيزياء الحياة** :
« هناك حيث يخفق النبض الخفي للكون اذ يكون ، هناك
حيث تنبثق كل حرارة من ينبوعها ، وتتفجر كل حركة
من مصدرها . ولا ريب ان الانسان يسهم بقسط في هذه
الحياة . في هذه الحرارة ، ولكن الانسان ليس اصل ذلك
ابدا . انه ليس سوى الوجود الواسع المصطب « ص ٩١ .
اذن فالانسان لا يصنع القيم . ولا يفرنكم ان تتجسد
الاصالة في انسان ما فيغدو « روح العالم في عصره » اذ
ان هذا الانسان لا يكون عبقريا حقا الا لانه يصبح حامل
مسير كلي . والواقع - ويجب ان نؤكد ذلك - ان الافراد
ليسوا هم الذين يصنعون المجتمع او الحضارة او المدينة .
اذن فمن هو الذي يصنع كل ذلك ؟ انه التاريخ ذاك
المرجع الاعلى للقيم الانسانية . ان التاريخ هو الذي يوجد
العبقريات المهمة والاهم المصطفاة ، انه هو الذي يكمل المهام
التاريخية العظيمة لهذا او ذاك من الناس فيجعل منهم
رجالا افاذا وقادة شعوب . يخلق الشعوب المتمايزة
والعروق التي يكلفها « القدر » بمهمة اقامة الحق على
غيرها . وتكون سيطرتها المقدسة تجليا لارادة سير الله
ذاته .

ان الانسانية برمتها مندمجة في حركة ميثافيزيقية
واحدة تتمخض عنها الحياة والقيمة ، او كما يقول
برغسون : « ان الكائنات العضوية جميعها - اوسع من
الانسانية - من احطها الى اسمها ، منذ اصل الحياة الاولى
حتى يومنا هذا ، انما تبدو لأعيننا - لعيني برغسون - في
جميع الامكنة ، وجميع الازمنة ، دفعة وحيدة لا تتجزأ
بدايتها . وهي تضاد حركة المادة . ان الاحياء كلهم يمسك
بعضهم ببعض ، وهم جميعا يخضعون للدفعة الكبرى
عيناها » (٢) .

(١) ومن الناطقين بالضاد نجد ايضا الدكتور عبد الرحمن بدوي والاستاذ
زكي الارسوزي

(٢) التطور المبدع : ص ٢٩٤ من النسخة الفرنسية .

وماذا ينجم عن ذلك ؟ ينجم عن ذلك ان من الضروري ان
نرى المجتمعات الانسانية موزعة على طول حركة الحياة
هذه . « لا بل لا بد لهذه المجتمعات من ان تتوزع بحسب
سلم متنوع اشبه بغزارة التورق في شجرة تنمو . فبعض
هذه المجتمعات تمثل اشكالا كان لها زمانها ، تمثل اغصانا
اصابها الجفاف واليبس لانسحاب الحياة منها ، وبعض
المجتمعات الاخرى تؤلف على العكس نباتات فتية غضة
تحتوي بالقوة على مستقبلها كله ، ذلك المستقبل الذي لا
يمكن التنبؤ به » ص ٩٤

وتبعا لهذا المنطق ، كيف تكون المدينة ؟ ان المدينة ، كل
المدينة ، هي عين الحركة التي تولد بها الحضارات الخاصة
او تموت ، تظهر او تزول . المدينة هي الحركة التي تهني
فوجا جديدا من انماط الحياة فوق رماد الحضارات السالفة
وتستمد غذاءها من ذاك الرماد بالذات . . . وما كتاب
شبنجلر « انحطاط الغرب » الا محاولة لتوضيح ما نقول .
ان كل مجتمع من المجتمعات هو مرحلة صاعدة تنشأ عنها
الابتكارات الرائعة العظيمة في ميادين اللغة والجمال
والسياسة والدين ، وهذا ما يؤلف « الثقافة » . ولكن لا
بد بعد زمن طويل او قصير ، من ان تجمد الحياة وتتصلب
وتلتصق الاوضاع والفاعليات في قوالب العادات او تتكاثر
باسراف مفرط ويقوم عندئذ حال « التمدين » في المجتمع
بالمعنى الصحيح .

اين تكمن فعالية التحريض على هذا التقدم والتمدين
والتطور ؟ في الحياة طبعا . ينبغي ان تقاس القيم الانسانية
بشدة على هذه النفحة المهمة ، وان حيويتها هي بالدرجة
الاولى معيار يحدد منزلة المدينة وقيمة المجتمع . . . وتظل
القيمة ، كل القيمة ، لقدرة التسامي الخلاق وحدها .
وحول هذا المعنى كانت تدور خطابات فخته في المانيا :
« الشعب الالماني : جميع الذين يحملون في ذواتهم حياة
خلاقة مجددة . . . الذين يترقبون اللحظة التي يمسكهم بها
سيل الحياة الاصلية بدورهم . . . واذا اعتبرناهم كشعب
فهم الشعب الاول ، الشعب وحسب ، اريد ان اقول
الشعب الالماني » (١) اذن فتيار الحياة هو الذي يمسك
بالافراد الجديرين ، وتيار الحياة او التاريخ هو الذي يهب
المجتمعات الجديرة حضارتها وسلطانها لا بل وجدارتها
بذلك ايضا .

وواضح ان الميثافيزيائية الاساسية في هذا الاتجاه هي
الموضوعة القائلة بأن الواقع حركي بذاته (٢) . وان « حوادث

(١) سنبله : الفكر الالماني ص ٨٢ من النسخة الفرنسية

(٢) تعتمد الحركة الماركسية على هذه الموضوعة ايضا . ولكن المؤلف
بلغت النظر الى اختلافها في النتائج عما نراه عند الجدليين الاخرين بقوله:
« وقد كفى المذهب الماركسي ان يقلب جدل « الفكرة » الى جدل مادي
حتى صار الحاضر طباقا بالنسازع الطبقي ونشأت حركات يسارية ثورية
أزاء تيار المحافظة الهيكلية .

التاريخ حوادث مجردة بل هي ظواهر الحياة والتاريخ . مثل هذه الحياة المبدعة ، شيء مشخص ومأساة . ان من المحال التنبؤ بما سيخترع ، وان عملياته العميقة لا يمكن ان تقلب . ان التاريخ يتناول دائما الانسان في العالم ، الانسان هنا الان ، وحركته حركة تجاوز لا يقهر ، وهي الاس الميتافيزيائي للانسان الواقعي ما دامت هي الواقع الميتافيزيائي بالذات » .

ما هي النتائج العملية لمثل هذه المذاهب « الرائعة » ؟ وهل يحق لنا ان نقاش هذه المذاهب من خلال نتائجها التطبيقية ؟ نعم ، اذ ما دام الكلام يدور حول الحضارة او المدنية ، اي حول سعادة الانسان فلا مناص لنا من حكها على محك النتائج العملية الواقعية . . . يقول باستيد : « ان مذاهب الميتافيزياء الحركية توصل بالضرورة الى اخلاق وسياسة هي اخلاق القوة وسياسة القوة . . . لا بل ان في وسع الفوضوية الفردية ان تدعي الانتماء الى الحركة الحيوية مثل ادعاء مذهب طفيان الدولة وان كان من اعظم المذاهب استعمارية واشدها جورا » .

هذا اولا . ثم اننا ما دمنا نعزل الانسان عن مصيره ، فان المرء لا يستطيع ان يمتنع عن الشعور بالشك العميق حول اتخاذ هذه الميتافيزياء غذاء روحيا قادرا على دعم الناس وتأييدهم في بناء مصائرهم . . . وادهى من كل هذا ان المذاهب اللاهوتية ان كانت تدعو الى خنوع واستسلام الى

مادية حرفية فان مذاهب الصيرورة الرومنطقية تدعو الى الخنوع عن طريق الفرق في خضم الحياة والاستسلام لغيباتها الخلاقة المبدعة . . . واذا كانت المذاهب اللاهوتية تغطية للمادية الارضية وستارا بيسرر اقطاعية الملكية العقارية ، فان الامر هنا يرجع الى بداوة في غابة - عكس المدنية - كحال الصياد التائه من صقع الى صقع ينتقل وجماعته المشردة من غير هدف قصي .

ثم الم يجد الاستعماريون سندا فكريا في مثل هذه المذاهب لتبرير وحشيتهم ؟ ان الغموض يشمل كل شيء . و « سيزعم كل مجتمع حسب حظه ومزاجه انه برعم نهائي لتمخض التاريخ ، ثم ينهار فورا فيتهم ذاته بالانحطاط ، وسيجعل وسواس الدور الصلف والانحطاط يتناوبان ، فتصبح العلاقات التاريخية خاضعة لاهتزاز هلوسات العظمة والاضطهاد . ان النظرة التي تبعث في الحضارات الجنون ليست بفكرة صحيحة عن (المدنية) » .

اما مناقشة هذه المذاهب مناقشة عقلية منطقية فامر يزيد في تهافتها ايضا . اذ ان هذه المذاهب تريد طرد التفكير من عالم المصير والقيم الاخلاقية ، وهذه الفتنة هي دعوة ظلام بقدر ما يقترحون علينا اتخاذها معيار فاعلية الانسان التمدنية . . . واذا كان التاريخ هو المرجع الاعلى للقيم الانسانية فهل للعقل ان يدرك حتمية هذا التاريخ ؟ ابدا . فالانسان « قوة تمشي » ويكفيه ان يصنع التاريخ اذ يحيا مصيره الميتافيزيائي . وهذا ما يؤدي بنا حتما الى الوصول الى هذه النتيجة المحزنة ، وهي ان المذاهب مذهب بدون الزام ولا جزاء من النوع الاخلاقي الصرف ، وفي هذا حذف للاخلاق بأسرها ، والاخلاق جذر المدنية .

واخيرا فان دور الفكر ينحصر في التبرير فقط ، فالثوب واسع والتبرير سهل جدا والمغالطات تصبح استنتاجات « منطقية » سليمة تماما ، ولا يبقى عليك اذا شئت ان تعرف المدنية الا ان تقول : ان تمخض (الله) في (التاريخ) ينتج بطبعه ، كآخر مرحلة من مراحل الصعود الاقصى ، ينتج (الدولة) البروسية ، وعاصمتها (برلين) حيث يقطن دماغ العالم و (كلمته) الاستاذ (هيجل) . . .

ابحاث فلاسفة التجربة البريطانيين عن اللذة والسعادة وتبرير الاستعمار ، وأنظمة الحضارة اللاهوتية ، وشطحات فلاسفة ميتافيزياء الحياة والحركة والصيرورة الرومنطيين ، تلكم هي الفئة الباحثة في سراب الحضارة او سراب المدنية . اما المدنية كيقين ، المدنية في كلام علمي مفهوم يثبت امام المنطق والعقل ، فهذا ما سنبجته في مقالنا القادم .

شريف الراس

مجاز في الفلسفة

ترقبوا

عدد

الجزائر

من

الثقافة العربية

مجلة فكرية عربية فصلية

يصدرها

النادي الثقافي العربي - بيروت

شملت مجموعة من الدراسات

صدرت بالعربية عن الجزائر

عدد كانون الثاني ١٩٥٨